ماذا قال هدهد حسان عن شهر رمضان؟

بقلم: حاتم عبد الهادي السيد*
مصر

حين زارني (حسان بن ثابت) شاعر الرسول ﷺ - ليلة أمس - في المنام، قال لي: قم الآن من مضجعك، يا من تدعي الشعر والكتابة، فها هو ذا رمضان قد أقبل، فماذا أعددت لرمضان؟ وماذا أعد رمضان لك؟

ثم لم يلبث أن عنفني على تكاسلي وأسمعني بيتاً لكعب بن زهير لا تزال تردده العصور:

إن الرسول لنور يستضاء به
مهند من سيوف الله مسلولُ

فاستيقظت من نومي مستبشراً، وشرعت القلم والقرطاس ولكني لم أستطع الكتابة، فقلت في نفسي: لعل هاجساً قد أوحى لي بذلك. ثم كان ليل اليوم الثاني فعاودني طيف حسان، وكان غاضباً، إلا أنه ظل يردد على مسامعي قول لبيد بن ربيعة:

ألا كل شيء ما خلا الله باطل
وكل نعيم لا محالة زائل

ثم مسح على رأسي وقال: أنت تعرف ماذا أريد منك، فخذ الحكمة من هدهد حسان وما رآه في شهر رمضان على مر العصور والأزمان.

فماذا قد حكى (هدهد حسان) حين جاءني في المنام؟ وهل سيحكي لي مثلما حكى الهدهد - من قبل - لسليمان عن عرش بلقيس ومدائن سبأ وحمير وغير ذلك؟!

قال الهدهد: منذ قرون من الزمان كنت أطوف البلدان فمررت بحلقة من الرجال يتوسطهم رجل يقال له محمد بن أبي بكر عبد القادر الرازي، وكان مهيب الطلعة، يمسك بيده كتاباً ألفه واسمه (مختار الصحاح) فسمعت أحدهم يسأله قائلاً: ما رمضان يا شيخ؟ فتبسم الرجل وقال: الرمض بفتحتين شدة وقع الشمس على الأرض، والأرض رمضاء، وفي الحديث: (صلاة الأوابين إذا رمضت الفصال في الضحى) أي إذا وجد الفصيل حر الشمس من الرمضاء، يقول: صلاة الضحى تلك الساعة، وأرمضته الرمضاء أي أحرقته، وشهر رمضان جمعه رمضانات، وقيل إنهم لما نقلوا أسماء الشهور من اللغة القديمة أسموها بالأزمنة التي وقعت فيها، فوافق هذا الشهر أيام رمض الحر فسمي بذلك، ولقد كرم الله هذا الشهر بأن أنزل القرآن فيه مصداقاً لقوله تعالى: (شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان فمن شهد منكم الشهر فليصمه)، فسررت من قوله، وواصلت المسير إلى بلاد الشام.

كنافة وقطايف رمضان:

يقول الهدهد: لما وصلت الشام رأيت (معاوية بن أبي سفيان)، وكان متأففاً يشكو لطبيبه (محمد بن أثال) ما يلقاه من الجوع في صيامه، فوصف له أكل الكنافة في السحور، فقررت أن أجوب البلدان لأعرف ماهية هذه

* عضو اتحاد كتاب مصر.

الكنافة، فصادفت شاعراً يقال له أبو الحسين يحيى الجزار من شعراء الأيوبيين - فسألته: هل تعرف الكنافة أيها الشاعر الهمام ؟ فقال على الفور وكيف لا أعرفها وأنا الذي قلت فيها :

تالله مالثَّمُ المراشف كلا ولا ضمُّ المعاطفْ
بالذ وقعاً في حشاي من الكنافة والقطايفْ

فتبسمت لقوله، فأضاف : كما خصصت الكنافة وحدها في قصيد فقلت :

سقى الله أكناف الكنافة بالقطرِ
وجاد عليها سكراً دائم الـــدرِ
وتباً لأوقـــــات المخلل إنها
تمر بلا نفع وتحسب من عمري

كما ذكر لي أن الشاعر أسد الدين بن عربي كان ذواقاً يحب الكنافة والقطايف، ولقد كان يقول فيها :

وقطائف مقرونة بكنافـــة من فوقهن السكر المذرورُ
هاتيك تطربني بنظم رائق ويروقني من هذه المنثورُ

يقول الهدهد : فضحكت من قلبي، واكتفيت بكلامه، وازددت ولعاً بهذه الحلوى الرائعة اللذيذة .

فانوس رمضان :

كما أخبرني الهدهد فقال: أثناء تطوافي في البلاد رأيت الأطفال بعد صلاة المغرب - بعد الإفطار- يحملون فوانيس مضاءة، ويغنون، فتعجبت من سلوكهم وكنت لا أعرف أن الذي يضيء في أيديهم اسمه (الفانوس) فعلمت أن بالمدينة عالماً يقال له (الفيروز آبادي) صاحب معجم القاموس المحيط اللغوي - فارتاح البال وذهبت متسائلاً فأجاب : الفانوس في اللغة معناه"النمام"وسمي بذلك لأنه يبدي ويظهر حامله وسط الظلام، والكلمة هذه معروفة في بعض اللغات السامية، إذ يقال للفانوس فيها (فناس) ومن الفوانيس (فانوس السحور) وهو الذي كان يعلق بالمآذن مضاءً وهاجاً، فإذا غاب نوره كان ذلك إيذاناً بوجوب الإمساك والكف عن المفطرات فشكرته ثم تابعت المسير، وكنت قد وصلت إلى مشارف جبل المقطم بقاهرة المعز فقلت: لا بد أن أستريح قليلاً من وعثاء السفر ووعورة الرحلة.

مدفع الإفطار :

ويكمل الهدهد حديثه، ولكنه كان هذه المرة خائفاً وجلاً يقول : ما إن حط جناحاي على قمة هضبة المقطم وكان الوقت غروباً - حتى شعرت بان الأرض ارتجت من تحتي، وسمعت رجلاً يقول : (مدفع الإفطار .. اضرب) ثم سمعت صوت مدفع ينطلق فيحدث جلبة هائلة، فظننت أن زلزالاً قد حدث، فطرت مسرعاً لأستطلع الخبر، فعرفت أن والي مصر (محمد علي باشا الكبير) قد اشترى عددا كبيراً من المدافع الحربية، وفي هذا اليوم كان يجري استعدادات لإطلاق هذه المدافع - كنوع من التجربة - فانطلق صوت المدفع متزامناً مع وقت إفطار الصائمين، فظن المصريون أن الوالي قد استحدث تقليداً جديداً، فارتاحوا لذلك، وذهب العلماء ورجال الدين للوالي يستسمحونه في أن يستمر ذلك الأمر فوافق، إلا أني استمعت إلى قول آخر يقول : إن المدفع قد ارتبط اسمه بامرأة يقال لها الحاجة فاطمة، وكانت زوجاً للوالي العثماني (خوشقدم) وكان الوالي يختبر أحد المدافع التي جاءته من صديق (ألماني) وكان ذلك وقت غروب الشمس، فظن المصريون أن الوالي قد استحدث هذا التقليد، فذهب إليه العلماء فلم يجدوه، فالتقوا بزوجته، فنقلت طلبهم للسلطان فوافق عليه، ومن يومها أصبح يطلق عليه الحاجة فاطمة . ويعقب الهدهد على ذلك بقوله : ولقد رأيت بعد ذلك أن هذه العادة قد انتقلت لعدة دول عربية مثل الإمارات والكويت وغيرهما .

بدء صيام شهر رمضان :

ويكمل الهدهد : ولقد علمت أثناء طيراني أن أول رمضان صامه المسلمون في التاريخ كان يوم الأحد الموافق (١ من رمضان عام ٢ هـ - ٢٦ من شباط (فبراير) عام ٦٢٤م) وقد فرض الله عز وجل صيام شهر رمضان في شهر شعبان عام ٢ هـ .

مكانة شهر رمضان :

ويضيف الهدهد : أثناء تطوافي على مجالس الذكر، وحفاظ الأحاديث النبوية الشريفة سمعت حافظاً يروي أن أبا هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :"إذا جاء رمضان فتحت أبواب الجنة، وغلقت أبواب النار، وصفدت الشياطين"، كما ذكر أن أبا هريرة روى عن النبي ﷺ أنه قال :"من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه".

ولقد كرم الله شهر رمضان بالصيام واختصه بنزول القرآن، وليلة القدر، والتي هي خير من ألف شهر، ثم استطرد الهدهد وقال : إنه استمع إلى حافظ يروي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه يقول: إن النبي ﷺ قال :"من صام رمضان وعرف حدوده وتحفظ مما ينبغي له أن يتحفظ منه كفّر ما قبله"، كما قال أيضاً :"إذا صمت فليصم سمعك وبصرك ولسانك ويدك"، وبعد هذا الحديث الشائق صمت الهدهد . فرأيت (حسان بن ثابت) يبتسم لي، فنظرت إليه فإذا لسانه يطاول أرنبة أنفه، فدهشت وسألته عن ذلك فصمت ولم يجب، وأجاب الهدهد عنه قائلاً : سأخبرك لماذا صمت حسان، فقلت : يا لك من هدهد مثقف يعرف الكثير! فصمت الهدهد لهذا الإطراء والثناء، ثم قال : عندما من الله على حسان بالإسلام وهو الشاعر المقدام، قوي الرأي والبيان، وأول من تصدى لشعراء الكفار وأفحمهم، أعجب به رسولنا الكريم وكان يداعبه فيمسك طرف لسانه ويقول :"والله ما يعدلني به لسان أحد من العرب" فقال حسان : ائذن لي بهجائهم، فرد عليه الرسول ﷺ :"كيف تهجوهم وأنا منهم"فقال حسان : إني سوف أسلُّك منهم كما تسل الشعرة من العجين، فقال له المصطفى عندئذٍ :"اهجهم وروح القدس معك، ومعك أبو بكر يعلمك الأنساب".

حسبك اليوم هذا الكلام، فمسك الختام حديث خير الأنام واستيقظت من نومي لأدع الهدهد ينام. ■

رمضان عذراً

شعر: حسين أحمد الرفاعي
الإمارات العربية المتحدة

هاانت عدت لتزرع الآمالا
تتلو المعارج.. تقرأ الأنفالا
هاانت عدت كما ذهبت مودعاً
والجرح ملء قلوبنا مازالا
هاانت عدت ونحن في أغلالنا
نهوى القيود ونسكن الأوحالا
عام مضى ويجيء عام بعده
والذل فينا يحكم الإقفالا
رمضان عذراً إن رأيت قصائدي
ما عدا وجه حروفها يتلالا
عذراً إذا سالت دموعي إنني
قد ذقت من مر الأسى أشكالا
أبصرت أمتنا تطأطئ هامها
وتعودت من ضعفها الإذلالا
مازلت أبحث عن بقايا عزة
وأحس أني قد طلبت محالا
مازلت يا رمضان أبحث جاهداً
أطوي الدروب وأمتطي الأهوالا
لكنني رغم المصاعب كلها
لن أسأم التجوال والترحالا
أملي كبير أن تجيء وأمتي
قد أنجبت للعالم الأبطالا
تأتي وقد سدنا البسيطة كلها
وتبدلت أحوالنا أحوالا
سيظل إيماني عميقاً صادقاً
بإلهنا.. سبحانه وتعالى